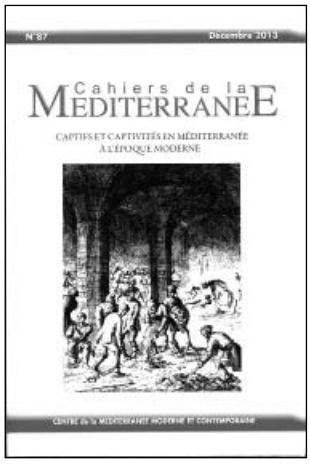

Cahiers de la Mediterranée, *Captifs et Captivité en Mediterranée à l'Epoque Moderne,* No 87, decembre 2013.

أتحفت مجلة دفاتر البحر الأبيض المتوسط قراءها بهذ العدد الخاص عن الأسرى وأشكال الاستعباد في البحر الأبيض المتوسط في العصر الحديث. وهذا إنجاز متميز جديد لمجلة صارت مرجعا لا غنى عنه لمن يعنى بتاريخ هذا البحر في القرون السالفة منذ صدورها الأول من جامعة نيس الفرنسية قبل زهاء نصف قرن عل يد أمثال الأستاذ أندري نوشي الجليل ويشرف عليها اليوم الأستاذة المحترمة مارية غزالي وكلاهما من أبناء الضفة الجنوبية للبحر، مما يضفي على ما يصدر في هذا المجلة ما يستلزمه البحث التاريخي النزيه من الشمول والموضوعية وأخذ الخصوصيات والثوابت والمتغيرات بعين الاعتبار، وكل ذلک مثبت مراعى بما يرضي ويشفي الغليل في القضايا المعالجة في هذا العدد المخصص للأسرى وأشكال الأسر في البحر الأبيض المتوسط منذ بزوغ العصر الحديث إلى نهاية القرن الثامن عشر، موضوع تكتنفه الشائكات وتحف به المزالق والمهاوي، وكيف لا وهو يثير مصير فئة غير قليلة من أبناء الضفتين لک أن تقول إنهم كانوا صلة وصل بينهما مثلما لک أن تقول إنهم كانوا بين نارين لوقوفهم أسرى معنفين على جبهات التنافر والاقتتال بينهما بأسلحة أقوى فتكا في العصر الحديث مما كانت عليه سابقا. وجاء الموضوع مدروسا في خمسة وعشرين بحثا ممهدا لها بمقدمة بقلم مارية غزالي وصادق بوبكرو ليلى مزيان، علما بأن تسعة من تلک الأبحاث بقلم أبناء الضفة الجنوبية والباقي بأقلام فرنسية وإسبانية وإيطالية. ويبدو من أول وهلة أن إلقاء القبض على البشر واستعبادهم وما يقترن بذلک من أشكال الاضطهاد لم يكن موقوفا على الضفة الجنوبية كما تروج لذلک الكتابات الأوربية القديمة وإنما

تلك ظاهرة كانت تمارس أيضا على الضفاف الشمالية المعتنقة للمسيحية فكانت أسواق الاتجار في البشر نافقة في بلنسية ومرسيليا وجنوى وفي مالطا بالأحرى، التي تولد مما اقترن اسمها به من التقزز والرعب سبة من السباب ما زالت رائجة في بعض الأوساط المغربة تقول " الله يؤديک لمانطا لا فرش لا غطا" تنم عن ذكريات الحرمان والعنف في سجون تلک الجزيرة التي جعلها الرهبان الفرسان الكاثوليک منذ طليعة القرن السادس عشر قلعة لمتابعة الحروب الصليبية ضدا على المسلمين، علما بأن الصراع بين المسيحية والإسلام لم يكن إلا سببا عارضا من أسباب تملک الرقاب والاتجار في الرقيق إذ الأمر كان بنيويا منذ أقدم العصور ومترتبا على حاجة المجتمعات يومئذ إلى الطاقة البشرية، فضلا عن أسباب أخرى تمليها الظروف، مما تعرض له الأبحاث المدرجة في هذا العدد فتبدي الثوابت والمتغيرات والقواسم المشتركة والخصوصيات بالملموس من الأمثلة والنماذج والدقيق من االشواهد والأدلة بأقلام باحثين متمكنين من أمرهم إما لضلوعهم فيه منذ عقود وإما لرسوخ قدمهم في طليعة مشوارهم العلمي والعدد مذيل بنبذة مفيدة عن سيرة الكتاب المشاركين. ولا مناص من الوقوف على أبحاثهم واحدا بواحد ولو بالوقفة الخاطفة مسترشدين بالمقدمةالمذكورة آنفا التي قدم بها للعدد.

وأول ما يثير الانتباه أن الأسر والرق كانا من ضرورات النقل البحري سواء منه التجاري والعسكري. فذلک ما تطرق له السيد مانويل لومس كورتيس في بحثه عن الأسرى المستعبدين على أساطيل إسبانيا في السادس والسابع عشر والسيد مكسيمليانو بارّيو كوثالو عن المسلمين المستعبدين في إسبانيا في القرن الثامن عشر فيدرک من ذلک تعاسة عيش أولائک الأسرى وكونهم لا يتميزون عن العبيد الذين لا أمل لهم في الانعتاق لأنهم ملک للدولة وللجيش ولأرباب النقل البحري الذين ينتهزون كل الفرص لامتلاک رقاب الشباب المسلم القادر على تحمّل ما يقترن به التجذيف على الأساطيل من العنف والقساوة التي لا تذكر الوثائق تفاصيلها إلا بشكل شحيح.

وعن مكان مالطا وفرسان دير القديس يحيى تحدثت السيدة آن بروجيني عن العبودية في زنازنهم والسيدة إلينا كوليوتزو عن العبيد في تلک الجزيرة ذاكرتين تفاصيل الحياة اليومية لتلک الشريحة شبه المجردة من بشريتها وعن عددهم وكيفية

استغلالهم برا وبحرا بحسب قوتهم العضلية وسنهم وجنسهم إذ كان من بينهم النساء أيضا.

ثم ننتقل مع الأستاذة عبلة غزيّل إلى حياة الأسرى المسيحيين وظروف إلقاء القبض عليهم في الجزائر بين الثامن عشر وبداية التاسع عشر تثير الانتباه في بحثها إلى ما صار يتخلل أعمال الأسر والاسترقاق من المتغيرات وإلى تحول التجارة بالعنف إلى التجارة بالتفاوض والتراضي بين الإيالة الجزائرية والدول الأوربية. وعن حياة أولائک الأسرى جاءت السيدة سيسيليا طارويل ببعض التفاصيل المستخرجة مما كان العرش الإسباني يؤدي من المعاشات لمن كان يتم افتداؤه من أسر يمتد على العموم أقل من عشر سنوات.

ويتأتى للمؤرخ أن يقف على بعض مشاهد حياة الأسرى النصارى في دار الإسلام من خلال ما كتبوا عن سيرهم الذاتية على ما يشوب ذلک من سراب الذاكرة المكلومة، مثل ذلک مثل ما جاء به السيد فاوسطو كراسا عن حياة وأشغال خرونمو دي باسمونتي بين الحقيقة والخيال، وأيضا ما كتبه السيد هانري سيمونو عن أسر الفارس جان دي فرانكولين الضابط النمساوي الذي كان أسيرا لدى السلطان سليمان القانوني فيما بين 1547 و 1552 ويستفاد من قصته فضلا عن يوميات الأسر كيف تم افتداؤه وماهي الشبكات التجارية التي اشتغلت بذلک في مدينة ركوزة. وذلک ما يشير إليه من جانبه السيد ماكنوس ريسّل بما تتبع من عناية تجار البندقية بفكاک أسرى أوربا الشمالية من الدانماركيين وتجار ألمانيا الشمالية. وكانت هذه العملية تدرّ من الأرباح ما له بال كما يبدو من بحث السيد محمد الجطي عن تطوان بصفة كونها مرفأ للافتداء في السادس والسابع عشر، وتونس كذلک التي اعتنت السيدة حذام هلال بفحص عقود الفكاک في القرن الثامن عشر معتمدة على الحسوب فاستخرجت من ذلک فوائد مثيرة.

وممن كان يسهر على الفداء والفكاک في الضفة الشمالية ديران أسسا لذلک منذ القرون الوسطى ولم يحتلا مركز الصدارة والظهور إلا في العصر الحديث وهما دير الثالوث ودير الرحمة كتبت عن عملهما في مرسيليا السيدة فابين تيران. ولم تنحصر أعمال الفكاک على أولائک الرهبان إذ كان الملوک وكبار النبلاء الأوربيون يهتمون بالأمر كذلک بدافع من العاطفة الدينية ومن باب الدعاية السياسية بدليل ما جاء في البحث المشترک للسيد رودي شولي والسيدة أولكا أورطيكا عن افتداء

الراهب دييكو دي ثيسنيروس الأسير في الجزائربين 1560 و1567، وذلک بناء على وصية مضبوطة من الإمبراطوركارلس الخامس المتوفي سنة 1557، وكذلک من بحث السيدة فلورانس لسرف عن بعثات الفكاک المقامة بأمر دوكات دي فريّاس.

أما من الضفة الجنوبية فالأمر كان موكولا شرعا وعرفا بالإمام أمير المؤمنين، وذلک ما يبدو من بعثة محمد بن عثمان المكناسي إلى مالطا سنة 1782 بأمر من سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله الذي كتبت عن سفارته السيدة مليكة زاهدي. ونظرا لتعاسة الأسرى فإنهم كانوا يسعون في الانعتاق بكل وسيلة ويغامرون بالفرار فيتعرضون لأقسى العقاب بدليل ما جاء في بحث السيد أحمد فاروق من خلال كتابات الأب دومنيک بوسنو من دير الرحمة الذي أقام في المغرب في طليعة القرن الثامن عشر يشتغل بفكاک الأسرى. بيد أن أسباب الانعتاق كانت متعددة ومباغتة، تنتهز فيها الحروب والمعارک برا وبحرا وما يرافق ذلک من الاحتلال الترابي، وكذلک حرث المراكب على الشواطئ ومختلف الأحداث والطوارئ مثلما ورد في بحث الأستاذ الذائع الصيت في هذه القضايا سلفطوري بونو.

ويتميز بحث السيد لويس في كانطو بكشف النقاب عن جانب قلما ينتبه إليه وهوإقدام بعض البشر على تقلد نير الرق والعبودية من تلقاء أنفسهم جراء المجاعة وما يترتب عليها من البؤس المدقع فإن السنوات العجاف في إقليم وهران عند منتصف القرن الثامن عشر دفعت بالعديد من أهل البلاد إلى بيع أشخاصهم إلى الإسبان المحتلين يومئذ للمرفأ الوهراني. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن العديد من الأسرى والرقيق كانوا ينقطعون جملة وتفصيلا عن أصولهم فتغدو غايتهم القصوى أن يندمجوا في المجتمع الذي أخذ منهم زبدة حياتهم. وتلک حال العبيد من السودان الذين تكاثرت أعدادهم في أوربا ابتداء من القرن السادس عشر حتى صار لهم رابطة خاصة بهم في بلنسية إسبانيا على ما شرح السيد دجوزيبي ريستيفو والسيد بسينطيكراوييرا سانت عن ظروف اندماج الرقيق والمعتقين في مجتمع تلک المدينة إذ كان لهم بعض الحقوق في حدود كونهم من ذوي البشرة الدكناء فلا حق لهم في الانخراط في طوائف الحرف مثلا. بيد أن تفاصيل حياة الأسري في بلنسية جاءت في إشارات السيدة مارية غزالي من خلال انكبابها على فحص أرشيفات محكمة تلک المدينة المسماة "بايلي خنرال"، فيها من دقائق المعلومات والسير الذاتية ما لا غنى عنه لمن يريد النبش في هذا المضمار.

هذا في الضفة الشمالية، أما في الضفة الجنوبية فأبحاث السيدة كلارا إلهام ألفارس دوبيكو تبدي كيف كان الأسرى المسيحيون يمارسون طقوس دينهم في تمام الحرية في تونس فيما بين 1720 و1735 على أن يتم ذلك بعيدا عن أنظار جمهور المسلمين وعن مسامعهم. وقد أدت روح التسامح المثبتة عصرئذ في المعاهدات بين دار الإسلام ودار النصرانية إلى اندماج بعض الأسرى المسيحيين في المجتمع المسلم مثلما يبدو من أبحاث السيد محمد فوزي المستغنمي عن كيفية اندماج أولائك الأسرى في حاشية البيت البيلكي التونسي في طليعة القرن التاسع عشر، وأيضا من أبحاث السيد المهدي جراد عن سيرة مصطفى بن حمزة الذي صار من علية القوم في تونس في تلك الحقبة بالذات علما بأن الاندماج الباهر كان لا ينسي الأصول ويبقي الشخص رهين أولياء نعمته من ذوي الجاه والسلطان.

ولا يسعنا إلا أن نشكر للمجلة هذا العدد المتميز المقنع، مدركين أن غزارة ما يحتوي عليه من الفوائد العلمية ليس سوى غيض من فيض وأن المؤرخ موكول به إن حفظ شيئا أن تضيع عنه أشياء كما قال الشاعر.

إبراهيم بوطالب